

نقد الحضارة الغربية بين إدغار موران وطه عبد الرحمن

Criticism of Western Civilization between
Edgar Moran and Taha Abdel Rahman

¹ بوشريحة فطيمة زهرة Fatima-Zohra BOUCHRIHA

• مخبر دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر، جامعة جيلالي لبابس سيدي بلعباس، fatima-zohra38@outlook.fr

تاريخ النشر: 2020/06/28

تاريخ القبول: 2020/04/04

تاريخ الاستلام: 2020/02/06

الملخص: يعرض هذا البحث مسألة نقد الحضارة الغربية من زاويتين مختلفتين من زاوية غربية، أي ذلك النقد تمخض من رحم للفكر الغربي، وكنموذج وقع اختيارنا على إدغار موران باعتباره دخل معارك عاتية من أجل البحث عن حلول تخرج المجتمع الغربي مما يعانيه من انفلات فكري، حاولنا معالجة نفس المسألة، نقد الحضارة الغربية من زاوية أخرى عربية، زاوية طه عبد الرحمن الذي حاول بناء خطة أصلية مبنية على النقد والإبداع وتمكن المجتمع العربي من تجاوز الانزلاقات التي وقع فيها الغرب وعليه فإن الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الورقة: كيف شكلت القراءة النقدية لكل من الفيلسوفين مدخلا لتأسيس حداثة بديلة؟ وأين تكمن نقاط التمايز بين القراءتين؟

الكلمات المفتاحية: النقد، الحداثة، الحضارة، الغرب، الأخلاق.

Abstract : This research presents the issue of criticizing Western civilization from two different angles from a Western angle, that is, the criticism resulted from the womb of Western thought, and as a model we chose Edgar Moran as he entered fierce battles in order to search for solutions to the graduation of Western society from what he suffers from an intellectual impunity, we tried to address the same issue Criticism of Western civilization from another Arab angle, Taha Abdel Rahman, who tried to build an original plan based on criticism and creativity and the Arab community was able to overcome the slippages in which the West occurred and accordingly the problem around this paper revolves: How the critical reading of each of the philosophers formed an input for assign alternative modernity? Where are the points of differentiation between the two readings?

Key words: criticism, modernity, civilization, the West, ethics.

¹ المؤلف المرسل: بوشريحة فطيمة زهرة ، الإيميل: fatima-zohra38@outlook.fr

مقدمة

تواجه الخطابات الفكرية المعاصرة والنظريات الفلسفية الراهنة نقدا وتقويما مستمرين، في وقت أضحى فيه التقدم العلمي تحديا يطرق بقوة على مفردات برامج القيم والتغيير، أما دعوات الإصلاح الجذري فتصطدم غالبا بجدار من التقاليد الراسخة والموروث المستند إلى مصالح اجتماعية، اقتصادية، سياسية.....، ولهذا تواجه عمليات التحديث تحديات كبيرة يفرضها مشروع النموذج الغربي المسوق عبر بوابة العولمة والذي يطرح هو الآخر إشكاليات وتناقضات عديدة.

لذلك نجد مجموعة من الجهود المبذولة من قبل المفكرين والفلاسفة لتخطي هذه الأزمة من خلال محاولة إقامة نظام يعبر عن شروط حماية الهوية والوجود إزاء التحديات المستمرة المحيطة بالإنسان من كل الاتجاهات...

وعليه سيعرض هذا البحث قضية نقد الحضارة الغربية من زاويتين زاوية إدغار موران كفيلسوف غربي وباعتباره السباق للحديث عن مأزق الحضارة الغربية وأزماتها، وعن طه عبد الرحمن كمفكر عربي حاول البحث عن حلول تخرج المجتمع العربي مما يعانيه من تشردم فكري وأخلاقي جراء إتباعه للحضارة الغربية، ومن هذا المنطلق وضع كل فيلسوف مجموعة اللبانات والأسس التي بنى من خلالها خطة الأصلية والتي كانت كليهما خطتين مباشرتين ومفتوحتين، فحملتا أساليب ومناهج نقدية تقويمية مختلفة الأهداف لكنها متوافقة المنهج، ألا وهو المنهج النقدي، ومن خلال ذلك بات لنا أن نطرح الأسئلة التالية: ما هي مبادئ الحداثة عند كل من إدغار موران وطه عبد الرحمن؟ وكيف نقد كل منهما الحضارة الغربية؟ فهل يختلف نقدهما في نقاط معينة؟ وهل ها يلغي سبيل التقارب بينهما؟ ثم كيف يمكن الوصول إلى الحداثة المثالية في نظر كل واحد منهما؟.

1. نقد الحداثة الغربية عند إدغار موران:

تعتبر مسألة الحضارة⁽¹⁾ من أهم المسائل التي خاض فيها الفلاسفة سواء القدماء أو الحداثيون باعتبارها تعبر عن ثقافة الأمة وإنتاجاتها، غير أن الحضارة الغربية الحديثة ونقصد بها الحضارة التي أحدثت قطيعة مع الفكر الديني وفكر العصور الوسطى، قد أعطت الإنسان مرتبة الألوهية، فجعلته محور الكون ومركزه، له القدرة على أن يجعل الطبيعة مسيرة طبيعة ومسخرة لصالحه لأنه استطاع أن يتحرر من مختلف الحتميات وقيود بما ذلك الحتميات الدينية والأخلاقية.

غير أن العقل حاد عن صوابه مع بداية القرن العشرين حيث أفرز سلبيات جعلت المجتمع الغربي يعيش تشتتا أخلاقيا، وهذا ما جعل الفلاسفة في عصر ما بعد الحداثة يقفون موقفا سلبيا من الحداثة

الهجينة ومن بين هؤلاء الفلاسفة نجد الفيلسوف الفرنسي إدغار موران⁽²⁾ الذي عكف على نقد مبادئ السامية كالحرية، التقدم، العقلانية، السعادة....، غير أن هذه المبادئ قد انحرفت عن طريقها حيث حولت السعادة إلى دمار، والتقدم إلى ركود، والعقلانية إلى اللاعقلانية، والحرية إلى الأسر لعل نيتش يعتبر أول من انتبه إلى مخاطر هذه الحداثة التي بدل أن تحرر للإنسان جعلته عبدا للآلة، "في عصر الآلة هذا تصير السيادة للمعمل ويستحيل الإنسان مجرد لولب"⁽³⁾، مما جعل الموازين تنقلب والأهداف تعكس هذا وقد ذهب أيضا هيدغر هو الآخر إلى نقد الحداثة الذي أكد على خطورة التقنية لكن ليس في حد ذاتها، بل كيفية فهمنا واستغلالنا لها، وكأن هيدغر يرجع الخطورة إلى "الوعي" حيث نجده يقول: "إن ماهية التقنية ليست مطلقا شيئا تقنيا، وهكذا فإننا لن ندرك أبدا علاقتنا بماهية التقنية طالما اقتصرنا على تمثيلها وممارستها، وعلى محاولة التلاؤم معها أو الهروب منها، ومهما فعلنا فسنبقى خاضعين للتقنية ومحرومين من الحرية سواء دافعنا عنها بانفعال أو أنكرناها"⁽⁴⁾ أي أن المشكلة مشكلة فهم واستجاب.

والى جانب هذين الفيلسوفين، وفلاسفة آخرون كفلاسفة مدرسة فرانكفورت، نجد الفيلسوف إدغار مورن هو الآخر حمل على عاتقه مهمة نقد الحضارة الغربية التي أرجع أزماتها إلى قيامها على ثلاث مبادئ أسماها بالأساطير وحددها في ثلاث أساطير كبرى وهي أسطورة التحكم، التقدم، السعادة.

1.1. أسطورة التحكم في الكون:

نعلم جيدا أن الإنسان قديما كان يهاب الطبيعة ويخشى غضبها، فكان يقوم بتدليلها من خلال المحافظة على جماليتها، بل حتى في الفلسفة اليونانية جعلوا آلهة من الطبيعة كآلهة الشمس، آلهة النار... وحتى الفلسفة الرواقية نجدها تدعو إلى ضرورة التوفيق بين الإنسان والطبيعة، لكن مع مجيء عصر الحداثة تغيير الوضع جذريا، حيث دعا هذا العصر إلى سلطة الإنسان ومركزيته بل وسيادته على الطبيعة، هذا من جهة، من جهة أخرى، قد ثارت الحداثة ضد الفكر اللاهوتي الديني، "إذ تحل الحداثة فكرة العلم محل فكرة الله في قلب المجتمع، وتقتصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد"⁽⁵⁾، وهذا ما أشار إليه إدغار موران في كتابه هل نسير إلى الهاوية، حيث يقول: "إن فترة الحداثة تبدأ من اللحظة التي لا يعود فيها وجود لهذا الله الذي هو أساس كل حقيقة، يشرع الفلاسفة في البحث ثانياً عن القاعدة التي يقوم عليها كل تصور ممكن"⁽⁶⁾. فالحداثة هي تلك القطيعة مع الفكر الديني، فأضحى الإنسان هو الإله وطبعا هذه السيادة والأولوية لن يكونا إلا بالعلم الذي هو سلاح الإنسان، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي يتلك الثنائية الجسد والروح، أي المادة والفكر مما يمكنه من حق

السيطرة على الموجودات الأخرى، غير أن إدغار موران قد انتقد ديكرت باعتباره فصل بين المادة والإنسان فأعلى من شأن العقل الأداتي وفي مقابل ذلك أبعد العلم عن المادة والإنسان فأعلى من شأن العقل الأداتي، وفي مقابل ذلك أبعد العلم عن كل ما هو إنساني، ويؤكد ذلك بقوله: "إن التفكير القائم على العقلنة وعلى المكتم والحساب، والذي يختزل في الاقتصاد هو تفكير عاجز عن فهم ما يعجز عن فهمه الحساب، أعني الحياة والأحاسيس والروح وتلك مشكلاتنا البشرية"⁽⁷⁾، علما أن إدغار موران كان يؤمن بالمركب ولا يقر بالتفصيل، هذا ونجده يميل إلى جون جاك روسو لأن هذا الأخير لم يكتف بالعقل فقط بل ربطه بإنسانية الإنسان ووجدانه.

إذن نجد أن إدغار موران لا ينتقد العقل في حد ذاته، بل يعترف به ويجعله أساس كل المعارف ومحور عملية التقدم، لكن بفكره المركب يحاول أن يزاوج بين العقلانية والإنسانية من خلال مبدأ أسماه "مبدأ الحوارية" قائلا في ذلك: "ما تجب رؤيته بالخصوص وراء جمع صيغ العقلنة هو إضافة إلى الفكر النقدي الممارس للنقد الذاتي نسيان ما أسماه روسو بالحساسية، بالرغم من حضور الطبيعة في فكر روسو، فإن عصر الأنوار تجاهلها"⁽⁸⁾، ذلك أن الفصل بين العلم والإنسانية سينتج عنه سلبيات لا حصر لها حسب موران، حيث سيؤدي إلى هلاك الإنسان وخير مثال على ذلك أسلحة الدمار الشامل، "فكلما زاد تحكمنا في القوى المادية في العالم، كلما ازدادنا انحطاطا بالمجال الحيوي"⁽⁹⁾، أي أنها ستحول التقدم إلى تدهور لأنها أبعدت الجانب الأخلاقي.

2.1. أسطورة التقدم:

وإضافة إلى أسطورة التحكم في الكون التي أوهمت الإنسان بأنه سيد نفسه وسيد الطبيعة، هناك أسطورة موازية لها هي أسطورة التقدم، فبعد التطور الذي أحرزه الإنسان من خلال العلم والتقنية، جعل الإنسان يثق بأنه يسير في ركب التقدم، وأن الحداثة قد دفعت به إلى الأمام، وكأن التقدم قد أصبح حتمية تلاصق التاريخ وفعلا، نجد التقدم قد دفع البشرية إلى الأمام، وذلك في ميادين متعددة سواء الميدان الطبي أو التقني أو العلمي....، ولكنه في مقابل ذلك أفرز مساوئ أخرى جسيمة ويرجع إدغار موران ذلك إلى طبيعة الفكر الاختزالي الذي حجب عن نفسه السلبيات وانبهر أمام المحاسن.

3.1. أسطورة السعادة:

بعد ذلك نجد أن هذا الإنسان الذي ساد الطبيعة وحقق بعضا من التقدم، ظن أنه قد بلغ السعادة القصوى من خلال ما أحرزه من رفاهية، أي أنه ربط السعادة بالجانب المادي، أي كلما حقق

أكبر قدر ممكن من الثروات كلما كبرت سعادته، وفي هذا السياق نجد إدغار موران يقول: "إن دعاة التقدم يجهلون بكل ما ليس قابلاً للعد ولا للقياس، أي أنهم يجهلون بالحياة والمعاناة والفرح والحب، إن مقياسهم الوحيد للرضا هو الإنتاج والإنتاجية والدخل النقدي"⁽¹⁰⁾، إذن هو تفكير مادي لم يعطي أدنى قيمة للجانب الروحي الذي هو جوهر الإنسان، إضافة إلى ذلك نجد ظهور الطبقة بين الناس كنتيجة من نتائج الغلو المادي، وحيز ذلك الرأسمالية وما خلفته من استغلال طبقي، واضطهاد للعمال، كما قد لا تغفل أيضاً المادة قد شيات الإنسان فاعتبرته جسم مادي وتناست روحانيته.

إن كل هته السلبيات جعلت السعادة تفلت من الإنسان بسبب سيطرة العقل الأداتي والتقنية على تفكيره، إذ أن "التقنية تؤدي إلى الأسوأ كما تؤدي إلى الأفضل، فليس العمال وحدهم الذين سخرُوا لمهام تكرارية ومقننة، بل إن مجموع المجتمع قد أخضع لمنطق الآلة الاصطناعية، القائمة على العقلنة، وعلى التوقيت المفروض للزمن، بما أدى إلى رد فعل يتجلى في الميل إلى التهالك على الملهي والاستغراق في العطل"⁽¹¹⁾، إذن حياة الفرد أصبحت حياة ظاهرها السعادة، لكن باطنها ممتلئ بالاكئاب والاستلاب والتهيه.

إذن نجد في الأخير أن الحداثة التي كان ينتظر منها الحرية، السعادة والتقدم، قد انعكست بالشكل السلبي.

2. نقد الحداثة الغربية من الزاوية الطاهائية:

إن طه عبد الرحمن لم ينظر إلى الحداثة الغربية بأعين عربية، أذهلها وأبهرها ما وصل إليه الآخر، فحجب ذلك عنه العيوب والانزلاقات، بل كانت نظرتة موضوعية حيث يرى أن الحداثة صنعت بأنامل إنسان، ومادام الأمر كذلك فبالإمكان تعديلها وتقويمها، إن دعت الحاجة إلى ذلك، من خلال الابتكار وإعمال النظر جيداً بعيداً عن التبع، وبعيداً عن العقلانية المتمردة، "ولقد أحسن نيتش أن إطلاق العنان للعقلانية المجردة سيقود حتماً إلى الهمجية والتوحش ونتائج لن تحمد عقباها"⁽¹²⁾. كما بني المشروع الطاهائي على ركيزتين أساسيتين، أولهما هو ضرورة تخليص القول الفلسفي من التقليد من خلال التحرر من التبعية للوصول إلى الإبداع الفلسفي المنوط بتحقيق فلسفة عربية خالصة.

وثانياً محاولته من خلال مشروعه الفكري التأسيس لحداثة عربية إسلامية، بناءً على النقد الأخلاقي لما يعرف بالحداثة الغربية التي ضربت منظومة القيم عرض الحائط، هذا ما جعل طه عبد الرحمن يركز على النقد الأخلاقي لما يعرف بالحداثة الغربية حيث نجدها في كل قسم من أقسام

الفلسفة، وهذا واضح وجلي في كتابه "روح الحداثة" الذي ركز فيه على الأخلاق، باعتبارها تمثل الإنسان، وكيف أن هذه الأخلاق تُستقى من الدين، فيها تُرفع الأمم بغيابها تنحط، لأنه مهما بلغ الإنسان أعلى المراتب وهو بعيد عنها، فإن ذلك لن يعد إلا تقدما ماديا، وهو ما يحصل لدى الغرب تمسكوا بـ"المادة" وأهملوا "القيم"، في حين أن التقدم الروحي هو الذي يحقق للإنسان السعادة والراحة النفسية، لذلك فإن طه نجده يعرف الإنسان على أنه كائن أخلاقي أكثر من أنه كائن عاقل "فإذا كان العقل الحداثي الطامع في ترسيخ الذات الإنسانية يبدع الآلة ليجيب عن السؤال الذي مفاده: كيف نغير العالم؟ فإن العقل الناظر العابد يبدع الآلة بغرض الجواب عن السؤال الذي مفاده: كيف نغير الأرض؟ وشتان بين هذا الفعل الفلسفي وذاك!"⁽¹³⁾، فالسؤال الأول غرضه التغيير لأن الإجابة عنه تُفضي إلى قوانين علمية قد تتغير بتغير الزمان وتطور الوسيلة والتقنية، فهو سؤال، أما السؤال الثاني فهو يقود إلى التعمير أكثر منه إلى التغيير، أي التعمير الذي يقود بدوره إلى الاستقرار والسكينة، فالإنسان لا يستطيع بلوغ كل ما يحمله الكون من أسرار وأضداد وقوانين، فما عليه إلا أن يعيش راضيا مكتفيا بما يحقق مطالبه ورغباته وسعادته، وكان طه عبد الرحمن يدعو إلى الزهد في الحياة، وعندئذ سيدجد العقل نفسه مكتفيا بمطالبه الأساسية، راضيا ببعيشته، سعيدا بقناعته.

أما الغرب الراكض وراء فلسفة التغيير، فقد وصل به الأمر إلى حد الطمع والجشع، فأراد بلوغ أعلى مراتب السيادة، لكنه وصل إلى أعماق نقطة من نقاط الاغتراب والكآبة، فأصبح الإنسان الغربي يعيش متلهفا إلى اكتساب كل المطامع، إلى أن ضاعت منه متعة اللحظة الآنية، وأصبح أسير اكتشافات تراكمية، قلبت الموازين رأسا على عقب، فبدلاً أن ترقى بالإنسان جعلته يتخبط في مشكلات إيتيقية كبيرة، كالبيواثيقا مثلاً. إذن انتقد طه عبد الرحمن التقدم الغربي لأنه كان على حساب منظومة القيم، ثم نجده ينتقد أيضاً المعنوية الفلسفية حيث ساد الاعتقاد طويلاً بين الفلاسفة والمفكرين أن المعاني ثابتة لا تتغير، فحتى لو تغير اللفظ فإن المعنى يبقى راسخ، غير أن طه عبد الرحمن يرى أن المعنوية الفلسفية الحقيقية هي المعنوية القصدية "لهذا يقوم وشائج بين المعنى والسياق والمعنى والفهم، وبالتالي بين المعنى والمقام بما يفيد أن معنى الملفوظ لا ينفك عن القصدية"⁽¹⁴⁾، لذا يتضح لنا أن طه عبد الرحمن قد أقام صلة وطيدة بين المعنى والقصدية.

ثم نجده أيضاً ينتقد العقلانية الفلسفية، حيث رسخت فكرة شائعة عند الغرب وهي وجود ثنائية متلازمة بين الفلسفة والعقل، على أساس أنه لا وجود للفلسفة في غياب العقل، وهذا ما يعرف عنده بالعقلانية الصنيعة، فجاء بديل لها وهي العقلانية الإتساعية، والتي تبطل كل دعوى تسلم

"بفكرة هايدغر القائلة بأن الفلسفة ليست إلا شكلا خاصا بالعقل اليوناني قديما وتكاد تكون خاصته بالعقل الجرمانى حديثا"⁽¹⁵⁾، ولقد اعترض طه عبد الرحمن على ذلك لأن العقل ليس ملكا لليونان والجرمان فقط بل هناك ما يعرف بـ "كونية العقل الإنسانى"، كما يحاول أيضا أن لا يجعل من العقل الأساس وينفى الإمكانيات الأخرى للتفكير، وإنما قد جعل من "العقلانية واللاعقلانية إنهما إلا طرفان متقابلان لسلم واحد"⁽¹⁶⁾

فنجده يقرب لعقلانية ويحذر منها في نفس الوقت، محاولا في ذلك تصحيح هذا المفهوم وتقويمه قائلا في ذلك: "يتضح لنا من النظر في مقاصد المنهج العقلي العلمي الحديث، أن هذا المنهج قد يطلب النسبية والتفاضل بدل الوحدة والتكامل، ويطلب الاسترقاق بدل التحرير، ويطلب الفوضى بدل النظام"⁽¹⁷⁾، حيث يرى أن هذه العقلانية المجردة تجلب الضرر لا المنفعة فهي تتميز بصفات ثلاث، النسبية، الاسترقاقية والفوضوية، أما عن النسبية فمفادها أن الحقائق العقلية ليست مطلقة كما يرى في ذلك الفلاسفة العقلانيون، بل هي نسبية وقد تتغير في أي لحظة، فظهور حقيقة علمية جديدة قد يمحى الحقائق السابقة وهنا قد يحضرنا مثال الرياضيات المعاصرة التي ألغت النسق الإقليدي وبينت محدوديته، ثم الاسترقاقية والتي يعني بها طه أنه بعدما ظن العديد من العلماء والفلاسفة أن العقل يقود إلى السيادة والريادة، فإن إطلاق كل العنان له قد يقود بنا إلى العكس فيصبح الإنسان أسير اكتشافاته واختراعاته التي قد تنقلب عليه فمثلا اليوم أسلحة الدمار الشامل تعتبر خطرا يهدد الإنسان في أي لحظة، إنه العقل المدمر الذي انقلب على الإنسان. كما تحدث طه عبد الرحمن عن الفوضوية، والتي عبر فيها عن وجود زخم معرفي خلق لنا فوضى عقلانية أي ظهور أنساق ونظريات ومدارس ونزعات كثيرة وغير متناسقة، لا تعبر عن التكامل والتلاحم، بل خلقت لنا فوضى معرفية، لذلك جاء طه عبد الرحمن بعقلانية أخرى بديلة تجعل القيم الأخلاقية ركيزة لها، وعقلانية غير مجردة تعتمد على العمل فأطلق عليهما اسم العقلانية المؤيدة والعقلانية المسددة، الأولى تعتمد على النفع في المقاصد، والنجوع في الوسائل، أما الثانية فتقتصر على النفع في المقاصد والتي تقوم على شرطين هما الثبات والشمولية حيث يعي الإنسان من خلالها مقاصد الشريعة من ناحية ثباتها ونفعيتها، أما العقلانية المؤيدة فهي تأتي بعد المسددة فهي مرتبطة باليقين في الوسائل بعد أن يكون الإنسان قد أدرك مقاصد الشريعة. وبناء على هذا فإن طه عبد الرحمن قد انتقد صراحة العقلانية الغربية الحديثة ولكن ليس بطريقة واقعية بل كانت أقرب إلى عالم العرفان والتصوف، من الواقع بتقلباته وهمومه.

ومنه فإن طه عبد الرحمن يؤكد أن الحضارة المبنية على العقل فقط هي حضارة ناقصة لأنها تمسكت فقط بهذا العقل ولم تعط الاعتبار لا للأخلاق ولا للدين فجعلت صوب عينيها التغيير فقط بعيدا عن التأمل والنقد والتمحيص، فاحتجبت عنها الحقيقة، حقيقة آفات العقل وما قد يفرزه من مفسد تضرب بالإنسان في بنيته التحتية (الأخلاقية والدينية)، لذلك حمل طه عبد الرحمن على عاتقه مسؤولية تغيير هذه العقلانية المجردة حيث جعل العقلانية تركز على ثلاثة عوامل:

العامل الأول وهو عامل الفاعلية أي أن الفعل العقلي تتعدد كميّاته ووسائله، كما تتقلب ظروفه الزمكانية، وتختلف وتتفاوت مقاصده، فمقياس الفاعلية هو مقياس يعكس فيه الفعل، العقل الإنساني، ثم العامل الثاني وهو عامل التقويم، وهو عامل يهتم بما يجب أن يكون وذلك ارتكازا على قيم معنية، أما العامل الثالث فهو مقياس التكامل، الذي يعني به تكامل الجوانب المختلفة للإنسان، فهو جسم + روح، فكل سلوك يأتيه الإنسان ما هو إلا تكامل بين أطراف متعددة وليس العقل فقط هو ميزة الإنسان بل تشترك فيه خصائص أخرى كالأخلاق مثلا. إذن اجتماع الفاعلية، التقويم والتكامل، يشكل العقلانية الطاهائية، واجتماع هذه المعايير الثلاث سيؤدي طبعاً إلى النفع.

لقد قسم طه عبد الرحمن حضارة العقل إلى أربعة أقسام: الحضارة المجردة، العملية، المسددة ثم المؤيدة، فقسم بذلك حضارة اللوغوس إلى حضارة عقل وهو ما تحدثنا عنه، وحضارة قول، حضارة معرفة، ثم حضارة تقنية، وكل هذه الحضارات لها صلة مباشرة للحدثة الغربية ونقدتها عنده، ثم عمل لكل حضارة ما يناسبها من الرد من النقد الإسلامي.

وبعد عرضنا لحضارة العقل، لا بأس أن نتعرف على الثانية وهي حضارة القول، حيث نجد في التعريف اليوناني للإنسان على أنه حيوان ناطق، وهذا لأهمية اللفظ والكلمة في المجال المعرفي الغربي، لكن أليس للقول سلبيات وآفات؟ حسب طه عبد الرحمن، فإن القول يضرب الفعل ويسبب له ثلاث آفات: ❖ آفة التضييق: وهي اتساع رقعة القول في المعرفة مما أدى إلى تضيق مساحة الأخلاق أي طغيان العقل والفعل على المجال الأخلاقي، "وإذا انحسرت الأخلاق على البرهان المنطقي والسلطان العلمي معاً، وهما على ما هما عليه من احتواء لأطراف العقل ولجوانب الحياة من الوجود الإنساني، فلم يبق للأخلاق إلا ما ليس بذئ صحة ولا ذي قوة من هذا الوجود"⁽¹⁹⁾، إذن طغيان القول أدى إلى تهميش الأخلاق، ونرى من خلال خوضنا في فلسفة طه عبد الرحمن أنه يرجع كل فكرة في فلسفته إلى الجانب الأخلاقي.

❖ آفة التمجيد: ثم يهاجم طه عبد الرحمن حضارة القول على أنها جمدت الأخلاق ومنعتها من سيورتها، ومن أن تكون أخلاق تختص بالجماعة ككل، بل وضعتها في حيز وجعلتها تختص بالأفراد، لا بالأمم والمجتمعات.

❖ آفة التنقيص: حيث يرى طه عبد الرحمن أن موجات الأقوال العاتية قد جرفت في طريقها الأفعال "كما أدى هذا الفيض اللفظي في الأقوال إلى الاعتقاد بأن القول السياسي هو أحق بتذكية الشعور ونفخ الروح في الإرادة، ومعلوم أنه ليس في الأقوال قول يعارض الفعل الخلقي معارضة القول السياسي له ولا أضرب به منه"⁽²⁰⁾، ذلك أن القول السياسي همّش القول الأخلاقي وحطّ من قيمته، ونحن نعلم أن للسياسة خباياها التي تجعل من الغاية تبرر الوسيلة المتبعة.

إذن حسب طه عبد الرحمن فإن حضارة القول قد أهتكت الأخلاق فضيقتّها، وجمدتها وأنقصت من قيمتها. لذلك نجد طه عبد الرحمن يدعو إلى تجديد العقل الإنساني الذي سنراه في أحداثه البديلة، بعد أن نقد طه عبد الرحمن حضارة العقل وحضارة المعرفة، باعتبار أن الأولى حضارة ناقصة والثانية حضارة ظالمة، نأتي الآن إلى الحضارة الثالثة وهي: حضارة المعرفة حيث هاجم طه المعرفة الحديثة لأنها أولاً فصلت العلم عن الأخلاق، فلا مكان للقيم في الساحة العلمية، وثانياً فصلت الغيبيات عن العلم، أي رفض المجال الميتافيزيقي وإبعاده عن المعرفة والعلم. وفصل العلم عن الأخلاق كان قائماً على مبدئين، مبدأ الموضوعية أي فصل الذات عن الموضوع المدروس الذي أطلق عليه طه عبد الرحمن اسم "مبدأ الموضوعية الجامدة"، ومبدأ التساهل الذي سماه طه عبد الرحمن "مبدأ التساهل المسيب" وهو المبدأ المبني على المنطق والرفض للأخلاق، "تميّزاً له عن مبدأ ثان يأخذ بتساهل "غير مسيب" أو قل "موجه" (بفتح الجيم)، إذ يقصد إلى أن يشرك الجانب العلمي مع الجانب النظري في تركيب النسق المنطقي أو النظرية العلمية"⁽²¹⁾، وكان العلم قد احتل الصدارة عن طريق التموه بمبدئين ظاهرهما يوحي بالرفعة والصرامة، كالموضوعية والتساهل، لكن باطنها يؤدي إلى هدم الأخلاق.

ثم من بين النتائج التي أفرزتها المعرفة الراضة للأخلاق ومبدأ التساهل المسيب على وجه الخصوص، هي أزمة القصد القائم بدوره على مبدئين، مبدأ السببية الذي هو أساس العلم، فحسب العلماء والفلاسفة المحدثين فإن كل ظاهرة إلا ولها سبب في وقوعها، أو لكل علة معلول، فالعلم لا يعترف أبداً بالماورائيات مما أدى إلى تسمية طه عبد الرحمن لهذا المبدأ بـ "مبدأ السببية الجامدة"، والمبدأ الثاني هو مبدأ الآلية المعروف الذي رفضه أيضاً وسماه بمبدأ "الآلية المسببة" ورفضهما تماماً باعتبارهما

لا يقران بالإرادة والقدرة الإلهية، وإنما يؤمنان بالمعرفة المبنية على مبدأي السببية والآلية، وخلاصة هذا الفصل أن المعرفة الحديثة هي معرفة عمياء حجت عن أنظارتها الأخلاق والقدرة الإلهية.

وبعد عرضنا للحضارات الثلاث التي انتقدتها طه عبد الرحمن: حضارة عقل، قول ومعرفة تأتي الآن إلى الحضارة الرابعة التي لها صلة بسابقاتها وهي حضارة التقنية، ومنطقيا إذا انتقد طه المعرفة فسيُفعل ذلك أيضا مع التقنية، التي تُبنى طبعا على التجريب، وكذلك على الترويض، فأما الأول "التجريب" فهو عملي والثاني "الترويض" نظري، حيث ترى هذه الحضارة أن تطبيق العقلانية يكون من خلال التمكن في التقنية، لكن هذا التمكن لم يمس الطبيعة فحسب، بل انتقل إلى الإنسان وبالتالي المساس بقيمه ودينه....، وطه عبد الرحمن يرفض ذلك باعتبار أن الإنسان لا يمكن تشيئته أو تجزئته وإنما هو كـل متكامل لا يمكن ببطره وخلاصة القول: "إن الإعوجاج الأخلاقي للحدثا بلغ تأثيره حدا لا ينفع في تقويمه ما نسميه "أخلاقيات السطح" (...). فلا بد إذن من طلب أخلاقيات تنأى عن السطح الذي وقفت عنده الحدثا وتغوص في أعماق الحياة وأعماق الإنسان"⁽¹⁹⁾، ودليل ذلك، أن الحدثا الغربية قد حملت في جذورها بذور فنائها بظهور تيارات جديدة نادت بتجاوزها والمناداة بـ"ما بعد الحدثا"، لذلك حذر طه عبد الرحمن من إتباع حدثا الغرب لأنها آيلة للزوال حيث أدت إلى استلاب الإنسان بواسطة التقنية وإلى فساد الأخلاق، فكيف لنا أن نتمسك بحدثا معوجة؟

إذن نجد أن طه عبد الرحمن قد شنّ حربا ضد العقل الحدثا الغربي باعتباره انتهاك حرمة الدين وقداسته ومس بالمنظومة القيمية والأخلاقية، بحيث يقول: "الأمة أحوج إلى البدء بتجديد الإنسان منها في تشييد العمران"⁽²⁰⁾، إنها الحدثا الغربية التي دعت إلى العلم والمادة وإلى العلمانية وأبعدت القيم باعتبارها تشكل حاجزا أمام التطور التكنولوجي والتقنية فهي حدثا غير مكتملة لا يحق لنا إتباعها..

خاتمة:

كخاتمة نستنتج أن أزمة الإنسان الحدثا عند كل من إدغار موران وطه عبد الرحمن، تعود بالدرجة الأولى إلى الطغيان العلمي الذي وصل إليه الإنسان المعاصر، وإلى تهميش إنسانية الإنسان وإقصاء أهم جوانبه كالجانبين الروحي والأخلاقي، بل وحتى الإنسان قد حولته الحدثا إلى كائن يعيش تحت رحمة الطبيعة، وبهذا الشكل تحولت الحدثا من مشروع إلى أزمة، كما عبر عن ذلك إدغار موران ومظاهر هذه الأزمة ظهر بشكل واضح خلال القرن العشرين (الحرب العالمية الأولى 1914)، أما طه عبد الرحمن فقد دعا المجتمعات العربية إلى ضرورة تجاوز مآزق الغرب من خلال تقديس الجانب

الروحي والأخلاقي للإنسان أولاً، ثم دعا أيضاً الحداثة العربية لمرورها بجملة من المبادئ من بينها مبدأ النقد القائل بضرورة فحص جميع الأفكار وربطها بمجالاتها التداولي الإسلامي، ثم ركز على الإبداع باعتباره يقود إلى التقدم.

إذن نجد أن كل من إدغار موران وطه عبد الرحمن قد أرجعا فشل الحداثة إلى إقصاء المنظومة القيمية للإنسان.

قائمة الإحالات والهوامش:

1. الحضارة: civilisation: تستعمل كلمة الحضارة لوصف حالة أو وضع منجز من الحياة الاجتماعية المنظمة، وكلمة الحضارة المستعملة في عبارة المشروع الحضاري تشير إلى طريقة معنية في بناء الحياة الإنسانية.
2. إدغار موران (1921)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي معاصر، أسرته منحدر من جذور يهودية، اكتشف عالم السياسة من خلال مناشير الأقليات اليسارية، ثم انتمى إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وإلى معركة المقاومة ضد النازي، شارك في العديد من المنظمات السلمية، من بينها "لجنة المثقفين من أجل السلم"، "لجنة المثقفين ضد حرب الجزائر"،... من أهم مؤلفاته، الإنسان والموت (1951)، المنهج بست أجزاء متتالية: طبيعة الطبيعة، حياة الحياة، معرفة المعرفة... جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006، ص645.
3. محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2008، ص1، ص59.
4. مارتن هيدغر: التقنية - الحقيقة - الوجود، تر، محمد سبيلا، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان (د،ط) (دس)، ص44.
5. آلان تورين: نقد الحداثة، تر، أنور مغيث، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (د،ط) (دب)، 1997، ص29.
6. إدغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ تر، عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2012، ص23.
7. المصدر نفسه، ص27.
8. إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربريتها، تر، محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2007، ص31.
9. إدغار موران هل نسير إلى الهاوية؟ مصدر سابق، ص28.
10. إدغار موران، هل نسير إلى الهاوية، مصدر سابق، ص75، 76.
11. المصدر نفسه، ص26، 27.
12. خالد حاجي، من مضايق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي والعربي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، 2005، ص162.
13. خالد حاجي، المرجع نفسه، ص171.
14. طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة 1، الفلسفة والترجمة، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1995، ص165.
15. المصدر نفسه، ص192.
16. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط2، 2000، ص161، 162.
17. طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط3، 2006، ص66.
18. المصدر نفسه، ص78.
19. المصدر نفسه، ص79.
20. المصدر نفسه، ص93.
21. (21) المصدر نفسه، ص26.

22. (22) طه عبد الرحمن، سؤال العمل (بحث عن الأول العملية في الفكر والعلم)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط1، 2012، ص83.